مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 60-61 (شتاء 2004)، ص 97

في الذاكرة

مختارات من الصحافة العربية
في وداع عرفات

محمود درويش

في وداع القائد*

فاجأَنا ياسر عرفات بأنه لم يفاجئنا. كأن تطابقاً بين الشخص المريض والنص المريض قد حدد مسبقاً صورة النهاية، وحرم البطل التراجيدي من إضفاء خصوصيته على القدر. فلا معجزة هذه المرة، ولا مفاجأة، منذ أصبحت التراجيديا، المصورة في مسلسل تلفزيوني طويل، يومية ومألوفة وعادية!

لقد أعدَّنا ياسر عرفات، تدريجياً، لوداعه المتواصل أكثر من مرة، وعوّدنا على موت غير عادي وغير معلن، بغارة من طائرة حربية، أو بسقوط طائرة مدنية في صحراء. لكنه – والأقدار تضفي عليه سحر الأعجوبة – كان يسبق الموت إلى الحياة، فنحيا معه في رحلة أَدْمَنّا خلالها الرحيل إلى هدف يتلألأ بجماليات المستحيل، وبشاعرية رعوية تعيننا على طول الطريق.

من منفى إلى آخر، كان الموضوع ينأى عن أرض الموضوع... ويدنو، في بلاغة ترسم اللافتات بدم قلنا إنه يخصب الفكرة، وينعش الذاكرة، ويرفع الحدود عن العلاقة بين الواقعي والأسطوري. كنا في حاجة إلى أسطورة أنجزنا بعض فصولها. لكن الأسطورة في حاجة إلى واقع، فهل سينجح الأسطوري في امتحان العمل على أرض الواقع؟ إنه سؤال مؤجل!

هو، ياسر عرفات، من استطاع أن يروض التناقض في المنافي، بمزيج من البراغماتية والدين والغيبيات. وتحوَّل، بديناميكيته الخارقة وتماهيه الكامل بين الشخصي والعام وعبادة العمل، من قائد إلى رمز شديد اللمعان.

لم يزاول مهنة الهندسة لتعبيد الطرق، بل لشقها في حقول الألغام. قد يحتاج التاريخ إلى وقت طويل لترتيب أوراق هذا الرجل – الظاهرة. لكنه سيمنحه رتبة الشرف في علم القدرة على البقاء منذ الآن، ومنذ الآن سيتوقف طويلاً عند مغامرته – المعجزة: إشعال النار في الجليد؛ فقد قاد ثورة معاكسة لأي حساب، لأنها ربما جاءت قبل أوانها، أو بعد أوانها ربما. أو ربما لأن موازين القوى الإقليمية لا تأذن لأحد بإشعال

(*) "الحياة"، 12/11/2004.

عود كبريت قرب حقول النفط... وعلى مقربة من الأمن الإسرائيلي!

لم ينتصر في المعارك العسكرية، لا في الوطن ولا في الشتات. لكنه انتصر في معركة الدفاع عن الوجود الوطني، ووضع المسألة الفلسطينية على الخارطة السياسية، الإقليمية والدولية، وفي بلورة الهوية الوطنية للفلسطيني اللاجئ المنسي عند أطراف الغياب، وفي تثبيت الحقيقة الفلسطينية في الوعي الإنساني، ونجح في إقناع العالم بأن الحرب تبدأ من فلسطين، وبأن السلم يبدأ من فلسطين.

وصارت كوفية ياسر عرفات، المعقودة بعناية رمزية وفولكلورية معاً، هي الدليل المعنوي والسياسي إلى فلسطين.

لكنه، وقد اختزل الموضوعات كلها في شخصه، صار ضرورياً لحياتنا إلى درجة الخطر... كربٍّ أسرة لا يريد لأولاده أن يكبروا لئلا يعتمدوا على أنفسهم. لذلك أعدَّنا، أكثر من مرة، للتعود على الخوف من فكرة اليتم، وعلى الخوف من احتضار الفكرة في حال غيابه الجسدي. ومن فرط ما ناوش الموت ونجا، امتلأ لاوعيٌ فلسطيني خرافي بشعور ما بأن عرفات قد لا يموت! وهكذا لامست أسطورته حدود الميتافيزيقيا.

لكن المفاجآت كانت تعمل في مكان آخر. فهذا الكائن الرمزي العائد من تأويلات إغريقية، كان في حاجة إلى التخفيف من عبء أسطورته، لأن البلد في حاجة إلى بناء وإدارة، وإلى التخلص من الاحتلال بوسائل جديدة. وهو الآن مكشوف أمام الجميع، عرضة للمس والهمس والمساءلة. ومن سوء حظ البطل أن عليه أن ينتصر على الأعداء في معارك غير متكافئة، من جهة... وأن يصون صورته في المخيلة العامة من نتوءاتها الداخلية.

لكن، وهو المشبع بثقافة صلاح الدين التفاوضية، وبتسامح عمر، لم يأت على حصان أبيض، ولا ماشياً أمام جمل... فلا مكان للخيل والإبل في بلاغة الأزمنة الحديثة. بل جاء إلى واقعه الجديد محمولاً على اتفاق أوسلو، ذي الجوهر الأمني الخالي من الإفراط في التفاؤل، والمفتوح على غموض النيات. لكنه عاد، وفي ذهنه خاطرة مرحة: حتى النبي موسى لم يعد إلى "أرض الميعاد"!

هي خطوة أولى نحو الدولة، يقول، ويعلم أن فلسطين ما زالت هناك: في القضايا المعلقة على مفاوضات الوضع النهائي، حول القدس وحق العودة وغيرها من القضايا الشائكة. والطريق إلى هناك لا يمر من أوسلو، بل من مرجعيات الشرعية الدولية.

وكان يعلم أن تلك المرجعيات لم تعد صالحة تماماً في عالم القطب الواحد، الذي رفع الدولة الإسرائيلية إلى مرتبة المقدس الذي يُلهم "البيت الأبيض" بتعاليمه السماوية! ويعرف أيضاً أن المراسم الرئاسية وبطاقات الهوية وجوازات السفر تعني، بالنسبة إلى المسؤولين الإسرائيليين، إلاّ ضرورة إلهاء المحرومين من الاستقلال

بوجبات رمزية سريعة لا تشبع الهوية الجائعة. ويعرف أيضاً وأيضاً أنه قد انتقل من المنفى إلى سجن مؤثث بصور الأشياء لا بحقيقتها، وأنه في حاجة إلى إذن بالانتقال من سجن في رام الله إلى سجن في غزة. ولا بأس من سجاد أحمر... ونشيد.

من هنا، بدأت محنة الرئيس، وداؤه السياسي والمعنوي. فهذا الأسير العظيم، المحكوم بالشروط الإسرائيلية القاسية، لا يستطيع التقدم نحو الفهم الإسرائيلي لعملية السلام، ولا يستطيع التراجع إلى أبجديات الصراع التقليدية. ولا يعزيه أن من ندم على أوسلو وخان تداعياتها هو "الشريك الإسرائيلي" الذي لم يعد شريكاً. فما العمل؟

لم يختلف أحد على حق الفلسطينيين في المقاومة، فكانت الانتفاضة الثانية تعبيراً طبيعياً عن إرادتهم الوطنية وإصرارهم على إعادة الحياة إلى الأمل بسلام حقيقي يحقق لهم الحرية والاستقلال. لكن أسئلة كثيرة طرحت حول الوسائل التي ينبغي أن تخدم هذا الهدف، وتجنب الفلسطينيين خطر استدراجهم إلى الحلبة العسكرية التي تَشَهّاها شارون، ليدرج حربه على الكيانية الفلسطينية الوليدة في سياق الحرب العالمية على الإرهاب، منذ أضاعت أميركا الحدود بين مفهوم المقاومة ومفهوم الإرهاب!

لم يعد أمام ياسر عرفات إلاّ الرهان على قدر لا يستجيب، وعلى معجزة لا تطيع هذا الزمن. المقاطعة، مقره ومنزله الوحيد، تنهار عليه غرفة غرفة. وهو يردد في نبرة نبوية: "شهيداً شهيداً شهيداً"، فيثير في النخوة العربية قشعريرة كهربائية عابرة. لكن تكرار أخبار المأساة يجعلها عادية. وهكذا صار حصار عرفات أمراً مألوفاً... ثلاث سنوات من تسميم الحياة، ثلاث سنوات من استنشاق الهواء الفاسد، ثلاث سنوات من الهجاء الأميركي "لم يعد ذا صلة"، ثلاث سنوات من الكد الإسرائيلي لتجريد عرفات من صلاحيته وصلاحية رمزيته. بيد أن الفلسطينيين قادرون دائماً على الترميز: حصار الرئيس رمز لحصارنا، ومعاناته رمز لمعاناتنا. فهو معنا، وفينا، ومثلنا، نحبه لأننا نحبه، ونحبه لأننا لا نحب أعداءه.

لم يفاجئنا هذه المرة. فقد أعدَّنا لوداع لا لقاء بعده. خرج المحاصر من حصاره ليزور الموت في المنفى، وليزود الأسطورة بما تحتاجه من مكر النهاية. لقد منحنا الوقت ليتدرب الحزن فينا على أدوات التعبير اللائقة، ولنبلغ سن الفطام التدريجي. في كل واحد منا شيء منه. هو الأب والابن: أبو مرحلة كاملة من تاريخ الفلسطينيين، وابنهم الذي أسهموا في صوغ خطابه وصورته.

لا نودّع الماضي معه... ولكننا ندخل، منذ الآن، في تاريخ جديد مفتوح على ما لا نعرف. فهل نعثر على الحاضر، قبل أن نخاف الغد؟■

بلال الحسن

عرفات الإنسان قبل عرفات القائد*

كنت في بداية عملي الصحافي عام 1965 في جريدة "المحرر" في بيروت. وهناك بدأ يزورني شخص لا أعرفه، يأتي بسرعة، ويذهب بسرعة، ويتكلم بلهجة مصرية. يسلمني بياناً عسكرياً لحركة "فتح" ويوصيني بنشره، ثم ينهض ليمضي، فألحق به وأسأله: من أنت؟ ما اسمك؟ فيبتسم ويقول: لا يهم، اسمي عبد الرؤوف.

وتمضي أسابيع، وتنتدبني الجريدة لإجراء حوارات فلسطينية بمناسبة 15 أيار [مايو]، فأذهب إلى دمشق لإجراء حوار مع ثلاثة أطراف كانت هي المتواجدة على الساحة الفلسطينية آنذاك: حركة "فتح"، وحركة القوميين العرب، وجبهة تحرير فلسطين التي أصبحت فيما بعد الجبهة الشعبية – القيادة العامة. وقد اتصلت بمكتب حركة "فتح" وطلبت موعداً مع ياسر عرفات، وذهبت إلى المكتب في الموعد المحدد، ووجدت نفسي أمام عبد الرؤوف الذي كان يحضر لي البيانات العسكرية. وضحك وضحكنا، وكانت بداية علاقة صحافية وسياسية ونضالية وإنسانية، تواصلت ولم تنته إلاّ بموته فجر يوم الخميس الماضي، في المستشفى العسكري في باريس.

تواجد في ذلك اللقاء ثلاثة من مسؤولي "فتح" تعرفت عليهم لأول مرة: ياسر عرفات وفاروق القدومي (أبو اللطف) وخليل الوزير (أبو جهاد). كانت ملاحظتي الأولى أن كل شخص منهم يختلف نوعياً عن الآخر. ياسر عرفات كان يسألني بدل أن أسأله، ماذا تريد منا؟ وقلت: أريد إجراء حوار يشرح رؤيتكم الاستراتيجية، فيرد متهماً: تريد أن تقدم للعدو الإسرائيلي خدمة مجانية بإطلاعه على استراتيجيتنا؟ وأقول: إذا كنت لا تريد أن تتكلم فأستطيع أن أذهب، ولكن لا تلوموني وتقولوا: أجريت حواراً مع الجميع وتجاهلت "فتح". ويرد عرفات مبتسماً: إجلس يا رجل، لن ندعك تخرج خائباً. [....]

[.....]

أثناء حصار بيروت عام 1982، وكنت خارجاً بعد منتصف الليل من جريدة "السفير" التي كنت أعمل بها، كان الظلام دامساً بسبب انقطاع الكهرباء، وكنت أتلمس سيري تلمساً، وتوقفت عند رصيف الشارع بانتظار مرور سيارة جاءت من بعيد. ولكن المفاجأة كانت أن السيارة توقفت أمامي، وانفتح بابها فجأة، وامتدت يد من داخل السيارة وجذبتني حتى ظننت أنني اختطفت، وما هي إلاّ لحظات حتى وعيت ما حولي، ووجدتني بحضور ياسر عرفات، وقال لي: هل أنت ذاهب للنوم؟ لن ندعك تنام هذه

(*) "الشرق الأوسط"، 14/11/2004.

الليلة وستبقى معنا. لم أفهم قصده، ولم أسأل، وتركت الحدث يأخذني كما يريد. استطعت في تلك الليلة أن أدرك لماذا أصبح هذا الرجل قائداً محبوباً ومسموع الكلمة، فقد ذهبت سيارة عرفات باتجاه الخطوط الأمامية حيث مواقع المواجهة مع القوات الإسرائيلية التي تحاصر بيروت. كان عرفات يحفظ خارطة المواقع في رأسه، وهو الذي يوجه السائق نحو الموقع الذي يريد الذهاب إليه. وعند وصوله، كان ينزل من السيارة، لا يبعد عن مواقع الجيش الإسرائيلي سوى عشرات الأمتار، فيأتي إليه المقاتلون يسلمون عليه ويعانقونه، ويسألهم هو عن معركة تلك الليلة، وعن الشهداء والجرحى، ويسألهم عن حاجتهم من الماء والطعام والذخيرة. وبعد أن يطمئن عليهم يعود إلى السيارة ويتجه نحو موقع آخر. ولم تنته هذه الجولة إلاّ عند السادسة والنصف صباحاً، وعندها، وعندها فقط، كان عرفات يذهب لينام بضع ساعات. وهكذا رسخ في ذهن كل مقاتل فلسطيني أن عرفات هو قائده، لأنه هو الذي يتواجد معه في المكان الصعب، وفي اللحظات الصعبة. وبسبب ذلك أصبح عرفات قائداً، وباستمرار ذلك أصبح قائداً تاريخياً. أمّا الصفات "الخارقة" فلا مجال لها في صنع تاريخيته، فهي من أوصاف الكتّاب والمحللين، أمّا على الأرض، فقد صنع عرفات شخصيته القيادية والتاريخية بجهده ودأبه، وبتعايشه لحظة بلحظة مع جنوده ومقاتليه.

ودارت دورة الحصار، وتحدد اليوم الذي سيغادر فيه عرفات بيروت عن طريق البحر (يوم 29 آب/أغسطس 1982)، وتجمعت بيروت كلها في الميناء تودع عرفات، وكنت واحداً من الآلاف بين الحشود المودعة، وحين تحركت السفينة نحو تونس، عدت إلى شوارع العاصمة، شاعراً بالوحدة والوحشة كما لم أشعر بهما من قبل، وجلست في مكتبي أتصفح دفتر التلفونات، وزاد هذا التصفح من إحساس الوحدة والوحشة، فكثير ممن هو مسجل في ذلك الدفتر الصغير كان قد استشهد أو غادر، ولم يعد هناك مجال للاتصال اليومي معهم، للقائهم أو لمعرفة الأخبار منهم. وبينما أنا غارق في هذا الوضع النفسي الموحش، دخل عليّ شخص يحمل في يده كيساً من الورق، وقال أنا مرافق أبو خالد (محسن إبراهيم)، وقد طلب مني أن أوصل لك هذه الأمانة من ياسر عرفات للعاملين في جريدة "السفير" الذين تضرروا من الحصار. فتحت الكيس فإذا به مليء بالمال، فتلفنت إلى مديرنا ياسر نعمه وطلبت منه الحضور، ووضعت المبلغ بين يديه، أحصاه فإذا هو مئة ألف ليرة لبنانية (حوالي 30 ألف دولار في ذلك الحين). وبالتشاور بيننا قررنا أن نحدد أولويات دفع المبلغ للمتضررين على أساسها. فهناك من هدم بيته، وهناك من احترقت سيارته، وهناك من اضطر لتهجير عائلته بسبب القصف. وأنجز ياسر نعمه توزيع المبلغ حسب تلك القواعد، وأحضر لي في النهاية مجموعة من الفواتير، وتحمل كل فاتورة توقيع الشخص المعني. وحين ذهبت إلى دمشق بعد أيام، التقيت عرفات، ومددت إليه مغلفاً يحمل الفواتير، فلم يمد يده لتسلمه،

وقال لي: لو كنت أريد منك "فواتير" لما أرسلت لك المبلغ في كيس من الورق.

كان عرفات كثيراً ما يتصل بالمسؤولين في جريدة "السفير" أيام الحصار، مشيداً بموقفهم، وقد زار الجريدة أكثر من مرة بعد منتصف الليل، وسهر مع المحررين الذين كانوا ينامون في الجريدة. وحين عرفوا أن عرفات غادر من دون أن ينسى تضحياتهم، وأنه فكر بهم بالذات، كان تأثرهم عميقاً وعميقاً جداً.

إن هذه المواقف وما فيها من لفتات إنسانية، ومن تفكير بالشيء الذي لا تعتقد أن عرفات يلاحظه، هي التي جعلت منه قائداً، وهي التي أوجدت تلك العلاقة الخاصة بينه وبين الناس، فأحبوه طويلاً، وافتقدوه بعمق حين غاب، وبكوه بحرقة حين أعلنت وفاته. إن الصفات الإنسانية هي التي تصنع القائد، وليس المواقف الكبيرة فقط. ولقد كان عرفات إنساناً قبل أن يكون قائداً.■

غسان تويني

هو كان الوطن المقدسي
والدولة قبل الدولة*

آخر مرة حدثني "الختيار" بالتلفون عند أسره في رام الله، وكان الكلام عن قتله قد بدأ يملأ الدنيا... صرخ: "أنا شهيد... شهيد... شهيد!".

كأنه كان يعني أن لا حاجة إلى قتله كي يستشهد.

ذلك هو معه سرّ الإنسان الأكبر من الإنسان.

شهيد، ولا حاجة إلى موت.

رئيس الدولة التي كان بها يحلم، ولو لم تبنَ بعد... وكأنه اليوم يعرف أنها ستقوم بوفاته التي تجعلها واجبة الوجود حتى على ألد الأعداء.

هو الوطن... يسكن جسده الذي اهترأ عذابات، كل فلسطيني، حيث هو، من صميم الأرض المحروقة إلى أقاصي معمورة نجاحات الانتشار...

ثم هو مثال الإسلام المقدسي. هل آن أوان البوح بالأسرار؟

عندما قرر عام 1974 الذهاب إلى مؤتمر القمة الإسلامية في لاهور (باكستان، الدولة الإسلامية الأولى في العالم) طلب مني أن أدعو البطريرك الياس الرابع، "بطريرك العرب"، ليرئس وفداً من كل الطوائف المسيحية ويتوجه إلى المؤتمر ليخطب فيه باسم المسيحيين العرب، لأن موضوع المؤتمر كان "تحرير القدس"... و"القدس لنا، معاً" قال.

ولمّا اعترض، بعد وصولنا، حاكم عربي سمح على اعتلاء البطريرك المنبر، والصليب على صدره وعصا الرعاية في يده، بلّغ أبو عمار كل الرؤساء – بمن فيهم من لم يكن في حياته قد شاهد حتى كاهناً، فكيف يصغي إلى بطريرك في مجمعه؟ – أن كلمة البطريرك هي كلمة فلسطين، يتكلم قبلاً، وبعده رئيس فلسطين... أو لا يتكلم!

وتكلم البطريرك، والصليب على صدره وفي كل كلمة من خطبته. وكان يضرب بعصاه الأرض وهو يتكلم دفاعاً عن قدسية القضية. ولا قدسية، قال، لقضية العرب من دون مسيحييهم.

ولبنان؟ قد يسأل سائل، وبحق.

كانت حربه مأساة عرفات الأولى والأكبر.

كان حلمه – وقد حاول التحقيق – أن يحتضن مسيحيو لبنان القضية المقدسية،

(*) "النهار"، 2004/11/7. [مقتطفات]

فحالت إسرائيل دون ذلك عندما استنفرت من استنفرت ومن عسكرت لنقل حربها على الفلسطينيين إلى لبنان، حيث كانت قد هجّرت الفلسطينيين تنفيذاً لمخططها الأصلي الهادف إلى "تطهير" فلسطين منهم لتستولي وحدها على كل "الأرض الموعودة"... زوراً وتزويراً!

[.....].■

جوزيف سماحة

المأساة العرفاتية*

تقدم ياسر عرفات من الإسرائيليين رافعاً الراية البيضاء. سمّى ذلك "سلام الشجعان". رفض الإسرائيليون أن يتسلموا منه الراية واقفاً. سمّوا ذلك "لا شريك".

يخطئ من يعتقد أن في هذا الوصف أي انتقاص من الرجل ونضاله. فلقد تدهور الوضع العربي إلى حد أن أريئيل شارون لم يعد يريد تسلم الراية البيضاء إلاّ ممن يجثو أمامه راكعاً. في هذه الأثناء كان الوضع الدولي ينحاز إليه. وكانت الولايات المتحدة تدعم مشروعه. وكان العرب، بعض العرب، ينهالون بالنبال على هذا الفلسطيني المعترض من أجل أن يخرّ ساجداً أمام جلاده.

منذ 1970 والثورة الفلسطينية تسير في عكس المجاري العميقة للسياسة العربية. وأدى ذلك في ما أدى إلى الانفجار اللبناني المريع. ولكن منذ 1980 شرعت الثورة تصطدم بالإعصار [....]

صارع عرفات ضد موت الثورة طيلة عقود. وما كان يمكنه أن يكون في زمن المد القومي بنداً في جدول أعمال النهوض القومي تحوّل إلى قضية صراع على أرض تغفل عن الدور الاستعماري لإسرائيل لسبب بسيط هو أن النظام العربي اتجه نحو الأصيل الأميركي عله يريحه بعض الشيء من الوكيل الإسرائيلي.

العرفاتية في مراحلها الأخيرة هي البرنامج النضالي المكلف جداً من أجل الاستسلام وقوفاً. لنضع جانباً التزويق القائل بأن الاتفاقات مع العدو الصهيوني ثمرة انتصارات ما. إنها محصلة صمود أسطوري للشعب الفلسطيني، وإصرار من الرجل على الحد الأدنى الوطني، وفرار عربي من أرض المعركة... لا بل، أحياناً، انتقال عربي إلى الجبهة المعادية.

يمتدح عرفات حين يقال عنه إنه أصر على الاستسلام مرفوع الرأس. ولقد دفع ثمناً غالياً عقاباً له على ذلك. لقد مثّل، على طريقته، هذا الجمع المأساوي بين كفاحية نادرة لدى شعبه وواقعية تدرك أن عالم الأنذال الحالي يوصد الأبواب في وجه واحدة من أكثر قضايا الكون عدلاً. [....]

المأساة العرفاتية، وهي هنا مأساة القضية الوطنية الفلسطينية، أن زمن الاستسلام المشرّف قد يكون مضى. والخوف هو حصول انشقاق بين شعاري "انتفاضة حتى النصر" و"الدولة بأي ثمن وفوق أي أرض وبما تيسر من سيادة". ولا علاج لهذا

(*) "السفير"، 2004/11/5. [مقتطفات]

الخوف إلاّ بتوفير قناعة بأن القادة الفلسطينيين جميعاً هم قيد الولادة من جديد في هذه اللحظة.

ليس الشعب الفلسطيني كائناً أسطورياً. إن من حقه أن يبحث عن العادية. وليس عرفات قائداً استثنائياً (وإلاّ ما كنا نرتعب من غيابه إلى هذا الحد). لكن الطرفين معاً شكّلا حالة الاستعصاء المعروفة التي أتعبت إسرائيل، وأحرجت رعاتها، وكشفت هزال الوضع العربي.

[.....]

غير أن أي توزيع عادل للمسؤوليات لن يظلمه كثيراً. وسيسجل له أنه ظل، حتى اللحظة الأخيرة، لصيقاً بشعبه، ساعياً إلى انتزاع بعض حقوقه، ممتنعاً عن أن يقدم للإسرائيليين اعتذاراً عن أنه كان، صدفة، في طريقهم فاختلط عليه الأمر بحيث لم يعد يعرف التمييز بين "النكبة" وبين "حق الشعب اليهودي في تقرير المصير".■

سمير قصير

العائد أبداً*

[.....]

في أيام الفدائيين، كان عرفات فدائياً، حتى قيل عنه إنه يختار أن يحشر نفسه في حال الخطر. اختار مع رفاقه من جيل المؤسسين في "فتح" أن يبقى في "الكرامة" أمام الهجوم الإسرائيلي، بخلاف كل قواعد حرب العصابات، فجعل من معركة الكرامة لحظة التأسيس الثانية. قبلها وبعدها، اختار أن يؤسس بنفسه خلايا المقاومة تحت الاحتلال، فقصد الضفة الغربية متخفياً وأقام فيها سراً. ولم يتوقف عن الخيارات الصعبة حتى عندما لمع نجمه وكبر حجمه.

يقال إن ياسر عرفات واجه ثلاثة حصارات كادت أن تودي به. ما لا يقال هو أنه اختار الحصار في الحالات الثلاث. فحين اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان في حزيران [يونيو] 1982، كان عرفات في جولة خارجية، لكنه عاد إلى بيروت ليواجه الحصار الإسرائيلي. وفي العام التالي، عاد إلى طرابلس وهو يدرك أنه سيواجه حصاراً جديداً، سورياً هذه المرة، فأقبل عليه وحسم مسألة الشرعية الفتحاوية. حتى حصاره الأخير اختاره هو، إذ قرر الإحجام عن السفر خارج فلسطين لحظة أدرك أن أريئيل شارون يريد أن ينجز في رام الله ما لم يوفق به في بيروت.

رجل بهذه الشجاعة، كيف يكون رجل تسوية؟ تلك كانت معادلته الصعبة.

أدرك باكراً ضرورة التسوية لأنه رأى فيها شرطاً لبقاء القضية. وقبل أن يقيم التسويات مع العدو، أقامها مع الأشقاء، فجعل من المناورة سلاحه الأمضى. من أجل القضية، كان يستطيع أن يقبّل من شتمه البارحة، وما أكثر الشتائم التي نالها، وما أكثر القبل التي وزعها. قيل إنه استسهل الكذب. هو نفسه أقر بذلك قائلاً أنه إذا كان مستعداً للقتل من أجل القضية، فكيف لا يكذب من أجلها، وخصوصاً حين يصبح الكذب عنده وسيلة لكشف النيات المبيتة، وما أكثرها، عند الأشقاء العرب.

رجل قبِل الشهادة كاحتماله اليومي، ورجل أضحت المراوغة طبيعته الثانية. كان عرفات الاثنين معاً، فكان المزيج بينهما كفيلاً بدحض فكرة الطهرانية التي كثيراً ما كانت تقنّع مدعي الصمود اللفظي أعداءه اللدودين. إنه المزيج الذي سمح له بأن يجتاز مرحلتين متناقضتين، مرحلة الثورة العالمية التي شكل أحد رموزها بعد هوشي منه وكاسترو، ومرحلة ما بعد الحرب الباردة التي رأته ينال اعتراف الخصوم.

(*) "النهار"، 2004/11/12. [مقتطفات]

في التاريخ العالمي الحديث، عرفات وحده مع نلسون مانديلا استطاع أن يجتاز هاتين المرحلتين، مع الفرق أنه لم يحظ بالاحترام الذي حظي به مانديلا... إلاّ من مانديلا نفسه، وفي ذلك دلالة ربما على أن العدو الذي يواجهه الفلسطينيون أعتى من ذاك الذي قهره شعب جنوب إفريقيا.

لم يصل الفلسطينيون إلى حد قهر عدوهم، هذا محسوم، ولم يتوصل ياسر عرفات إلى بناء الدولة الفلسطينية المستقلة، وإن رسم معالمها. لكنه فعل ما هو أهم: لقد صنع المستحيل.

فحين نجح ياسر عرفات في العودة، ومعه نحو ثلاث مئة ألف من فلسطينيي الشتات، قبل عشرة أعوام، أكد أن مسار قضية فلسطين قد انعكس بخلاف كل التوقعات "الواقعية". وإذ يرجع مجدداً إلى فلسطين لتكون مثواه الأخير، فهو يزرع في أرضها معلماً يعلنها حية عربية عائدة أبداً.■

جهاد الخازن

في كامب ديفيد، لم يكن لأبو عمار فرصة ذهبية أو فضية*

قدمت ابنتي الكبرى إلى أبو عمار في دافوس فعانقها، وقال مشيراً إليّ: إذا قلت لك ده أخويا، أبقى أنا مين؟ وابنتي تتقن العربية العامية والفصحى على رغم أنها أقامت عمرها كله في الخارج، إلاّ إنها لا تفهم دخائل اللغة ودقائقها. ونظرت إليّ مستفهمة فيما كان أبو عمار يحتضنها ويكرر السؤال، وقلت لها إن الرئيس يقول أنه أخي وبالتالي عمها.

[.....]

أبو عمار نجح كقائد ثورة، إلاّ إنه عجز عن النقلة إلى رئيس دولة، وترأس حكماً عربياً تقليدياً ينخره الفساد، وتسوده المحسوبية، مع العلم أن أبو عمار نفسه لم يكن فاسداً، ورأي البنك الدولي فيه، وهو رأي أوافق عليه، أنه مفسد لا فاسد، فقد كان الفساد وسيلته إلى السيطرة مع غياب أجهزة دولة تقليدية.

أحاول أن أكتب بموضوعية، بالتجرد الممكن، وأقول إن أبو عمار أخطأ في الأردن وفي لبنان ومع الكويت، ثم أخطأ مع نفسه وشعبه، إلاّ إنه لم يكن المخطئ الوحيد.

في الأردن سعت إلى المواجهة مع السلطات المضيفة فصائل يسارية فلسطينية وغيرها، وانجرت "فتح" إلى المواجهة في النهاية، مع أن واجب أبو عمار كان منعها. وفي لبنان وقفت الثورة مع فريق لبناني يريد انتزاع الرئاسة والسلطة لنفسه ضد فريق، وكان يجب أن تظل على الحياد. وفي الكويت أيد أبو عمار الجانب المعتدي، وهو الذي ناضل العمر كله ضد العدوان على شعبه.

كما يرى القارئ أبو عمار أخي وأسجل أخطاءه، ولكن ما هي أخطاء الآخرين؟

الجانب الإسرائيلي لم يكن صادقاً في التعامل مع العملية السلمية، ويكفي أن الفلسطينيين تركوا من بلادهم لليهود في فلسطين 78 في المئة من الأرض، وبدل أن تترك إسرائيل الـ 22 في المئة المتبقية للفلسطينيين فقد عمدت حكوماتها المتتالية إلى توسيع الاستيطان حتى زاد عدد المستوطنين إلى ضعفين، أو 250 ألفاً، خلال سبع سنوات من المفاوضات. هذا ليس تصرف طرف يريد قيام دولتين تعيشان بسلام جنباً

(*) "الحياة"، 2004/11/11. [مقتطفات]

إلى جنب.

وكانت الكذبة الأكبر في كامب ديفيد في تموز (يوليو) من السنة ألفين، فقد رفض أبو عمار المعروض عليه واتهم حتى الآن بتفويت فرصة "ذهبية".

لم تكن هناك فرصة ذهبية أو فضية، أو حتى برونزية، وعندي رد قاطع على هذا الموضوع، ففي 23 كانون الأول (ديسمبر) من السنة نفسها عرض الرئيس كلينتون على الرئيس الفلسطيني، في الاجتماع الأخير بينهما في واشنطن، ما عرف باتفاق "الأطر" وكان أفضل ألف مرة من المعروض في كامب ديفيد قبل خمسة أشهر، ما يبرر بالمنطق المجرد صواب قرار أبو عمار رفض المعروض في كامب ديفيد، والصمود خمسة أشهر.

أبو عمار قبل اتفاق الأطر في واشنطن، ثم تردد في غزة بعد أن رفضه مسؤولون حوله أقنعوه بأن العملية "بعد بدّها غلوة" من غلي القهوة. وكما حدث في الأردن سنة 1970، وفي لبنان بعد ذلك، عجز أبو عمار عن الحسم والحزم وهو قادر.

[.....].■

سمير عطا الله

سرير الغياب*

طالب كثيرون ياسر عرفات بأن يعد خلفاً له (وأنا بينهم). وانتقد كثيرون (الداعي منهم) تفرده بالقرار السياسي والمالي. وفي كل الحالات كان هناك دافع واحد، هو الحرص على الصورة التاريخية لأبو عمار وبالتالي الحرص على القضية التي ترافق كل عربي إلى غرفة نومه وتستفيق قبله في الصباح ويبدأ بها قراءة صحيفته، وبها أيضاً يبدأ قراءة تاريخه الحديث، وهو تاريخ بائس جدب خَلِقٌ، أي شديد الاهتراء.

لكن وهو على سرير الغائب، يستحق أبو عمار شيئاً من الإنصاف: فلماذا طالبناه وحده من بين الزعماء العرب بإعداد خلف له؟ لأن أبو عمار كان يتحمل النقد والمساءلة وقسوة الأصدقاء. ومهما ارتفعت حدة النقد لم يكن يقابل ذلك بأكثر من هاتف معاتبة، أو بكلمة ينقلها مرسال. وقد أخطأ كثيراً حين أمر، أو سمح، بمنع كتب إدوارد سعيد في أراضي السلطة. لكنه لم يرسل إليه تهديداً واحداً ولا سمح لرجل أمن بمكالمته.

أمّا في مسألة الخلافة فقد فعل أبو عمار ما فعله الجميع. لا أحد يليه ما دام في الحياة. ولا أحد يفكر في الخلافة لأن ذلك كفر. وبما أنه لم يكن لديه أبناء أو بنات في سن الرشد، فقد كان الحظر كاملاً. لقد طالبنا أبو عمار بأن يتصرف كسويدي، بينما هو في قلب العالم العربي. طالبناه بتسمية خلف في عالم ينتهي فيه الحاكم عند الناس بمجرد ظهور خلفه. وطالبناه بتسمية قيادة جماعية في عالم وزعت فيه القيادات الجماعية على السجون أو القبور، اللهّم إلاّ من تجربة ديمقراطية واحدة هي تجربة "السيد النائب" في العراق. على مدى النظام العربي كان لبنان، على علاته الديمقراطية، هو البلد العربي الوحيد الذي تذكر فيه كلمة "رئيس سابق". أي سابق وعلى قيد الحياة في آن واحد. يا للهول. والآن أعتقد أننا دخلنا مرحلة التعريب ولن نضيع الوقت بعد اليوم في البحث عن رئيس جديد ما دام الرئيس على قيد الحياة.

[.....].■

(*) "الشرق الأوسط"، 6/11/2004. [مقتطفات]

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf